محيي الدين النـــووي
والسلطان بيبرس
للدكتور عبـــد الوهاب عزام

كان شيخ الإسلام أبو زكريا يحيي النووىّ من أعلام العلماء فى القرن السابع الهجرى ، ذا مكانة عالية بين علماء الفقه والحديث . وكان له فى التقوى والورع والزهد سيرة محمودة ، وفى نصرة الحق وتأييده مواقف مشهودة . ولا بأس أن نثبت هنا بعض سجعات ابن السبكى : « كان يحيى رحمه الله سيِّداً وحصورا ، وليثا على نفسه هصورا ، وزاهداً لم يبال بخراب الدنيا إذا صَيَّرَ ربع دينه معمورا . له الزهد والقناعة ، ومتابعة السالفين من أهل السنة والجماعة ، والمصابرة على أنواع الخير ، لا يصرف ساعة فى غير طاعة . هذا مع التفنن فى أصناف العلوم : متون أحاديث ، وأسماء رجال ، ولغة وصرفاً ، إلى غير ذلك » .

ولست أبني هنا ترجمة النواوىّ ، ولكن أذكر واقعة كانت بينه وبين الظاهر بيبرس ، وهى واحدة لها أمثال فى سيرة الشيخ ، ولها نظائر كثيرة فى تاريخ الإسلام :

كان بيبرس ملكاً مجاهداً أبلى فى قتال التتار والصليبيين بلاءً عظيماً ، وقد انتظمت شجاعته وعزيمته مع شجاعة أسلافه وأخلافه من الأيوبيين والمماليك ، فكانت سرًّا من الجهاد والجلاد ، وفى البلاد المصرية مصائب الغزاة ، وخيَّب دونها آمال الصليبيين مائتى سنة . وكذلك كانت همته وإقدامه هو وجنوده فى مصر والشام ، كالطود ارتد عنه سيل التتار بعد أن جرف البلاد الإسلامية من سمرقند وخوارزم إلى حلب ودمشق ؛ فصدَّموا جنود هولاكو فى « موقعة عين جالوت » وما بعدها أن مصر أبعد من أن يطمعوا فيها ، وأن الشام أعزّ من أن يسيطروا عليه

وكان بيبرس فى جهاده المستمر ، وحربه المتادية ، يتوسل إلى المال يستعين به على جهاده ، وكان الشيخ النووى يكتب إليه ناصحاً كلما رأى فى عمل السلطان شدة ، أو جوراً ، أو مخالفة للشرع ، لا يني فى هذا ولا يداهن ، ولا تأخذه رغبة ولا رهبة

كتب مرة إلى السلطان هو وبعض العلماء ، يطلبون رفع بعض المكوس ، ويوصون بالعدل والشفقة ، فكان فى الجواب إنكار وتوبيخ وتهديد ، فكتب الشيخ النووى يجادل فيما تضمنه جواب السلطان ويقول :

« وأما تهديد الرعية بسبب نصيحتنا ، وتهديد طائفة العلماء فليس هو المرجوّ من عدل السلطان وحلمه . وأى حيلة لضعفاء المسلمين فى الناصحين نصيحة للسلطان ولهم ولا علم لهم به ؟ وكيف يؤاخذون به لو كان فيه ما يلام عليه ؟ وأما أنا فى نفسي فلا يضرنى التهديد ولا أكثر منه ولا يمنعنى ذلك من نصيحة السلطان ، فإنى أعتقد أن هذا واجب على وعلى غيرى . وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله تعالى . « إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار » . « وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد » . وقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقول الحق حيثما كنا وألا نخاف فى الله لومة لائم »

ولما ذهب السلطان إلى الشام لمحاربة التتار أراد أن يأخذ مالاً من الرعية يستظهر به على العدو واستفتى العلماء فأفتوه . ثم سأل عن الشيخ النووى أن يشارك العلماء فى الفتوى . فلما حضر الشيخ قال السلطان : اكتب خطك مع الفقهاء . فامتنع . قال السلطان : لماذا لا تكتب ؟ قال الشيخ :

« أنا أعرف أنك كنت فى الرق للأمير بندقدار ، وليس لك مال . ثم منَّ الله عليك وجعلك ملكا . وسمعت أن عندك ألف مملوك كل مملوك له حياصة من ذهب ، وعندك مائتا جارية لكل جارية حقّ من الحلىّ . فإذا أنفقت ذلك كله وبقيت مماليكك بالبنود الصوف بدلاً من الحوائص ، وبقيت الجوارى بثيابهن دون الحلى أفتيتك بأخذ المال من الرعية »

قال الظاهر للشيخ : أخرج من بلدى (يعنى دمشق)

قال الشيخ : السمع والطاعة . وخرج إلى نوى

فأنكر الفقهاء أن يُخرَج مثل النووى من المدينة ، وسألوا السلطان أن يرجعه . فأمر السلطان بإرجاعه . فأبى الشيخ وقال : لا أدخلها والظاهر بها

لست أدرى أكان السلطان محقا فى فرض ما فرض من المال أم لا . ولست لذلك أعرف أكان الشيخ محقا فى مجابهة السلطان بما جابهه به ، ولكن لا ريب عندى أن السلطان أحسن حين التمس فتوى العلماء قبل أن يجمع المال ، وأن الشيخ أدى واجبه حين صارح السلطان بما يعتقد ، ولم يأخذه فى الحق خوف ولا طمع ، وأن محيي الدين النووى قد فقه أحسن الفقه ما على العلماء من النصيحة لأولى الأمر ، والجهر بالحق فى غير مداهنة ولا خوف . رحم الله النووى ؛ لقد كان من علماء المسلمين . ولله تاريخ المسلمين كم فيه من أمثال محيي الدين !

عبد الوهاب عزام